"الهجرة الثانية" ظاهرة أفرزتها تداعيات الأزمة الاقتصادية والعطالة

تضطر عائلات مهاجرة لتعود من منتصف الطريق وتبدأ من جديد رحلة الهجرة، قطعت الأزمة الاقتصادية ما تبقى من جسر العبور، ولم تترك إلا اتجاها واحدا نحو البداية، وهمشت العطالة أنفاس الصمود في وجه ريحها العاتية، فمنهم من رحل في مشوار جديد ومنهم من ينتظر. "نساء من المغرب" عمدت في هذه التغطية، إلى معايشة أجواء من هذه الظاهرة الجديدة، "ظاهرة الهجرة الثانية"، واقتربت من المعنيين بها، وعايشت لحظات الإعداد للرحيل أو حتى لحظات المقاومة في انتظار أي انفراج قريب، كما استقصت آراء خبراء ومحللين في الأبعاد الأخرى النفسية والقانونية والإعلامية للظاهرة.

محمد المودن - إشبيلية

البداية الثانية

تسجل الهجرة عموما، ظواهر بعينها تعكس مرحلة أو منعطفا في مسارات هذه الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية. الهجرة اليوم تقف في منتصف الطريق، تضيع فيها البداية وتتخفى عنها النهاية، تختلط الاتجاهات ويؤول فيه الأفق سرابا يحسبه المهاجر نهاية لبداية لم تكتمل. آلاف من العائلات المغربية وغير المغربية التي ركبت موج الهجرة بحثا عن أفق بديل، أعادتها ظروف الأزمة الاقتصادية إلى نقطة البداية. كأن عمرا بأكمله ما مر من شعاب البحر أو من مسالك الدروب الليلية المحفوفة بسديم الوحدة وفراغها الدامس، وما جرب الخطو على صفائح الثلج، وما توسد حنينا متوهجا في مآلات الوحشة.

حينما شرع جمال .ر في الحديث "لنساء من المغرب" عن هاجسه الجديد، كان عائدا للتو من مندوبية الحكومة المكلفة بشؤون الهجرة في إشبيلية، حاملا ظرفا كبيرا به حفنة من الأوراق، عمد إلى التقاط أنفاسه المتلاحقة بعد تنقله من مكان إلى آخر في هذه المدينة الواسعة طلبا للوثائق قبل أن يحين الزوال. بادر متحدثا إلى المجلة قائلا : "لقد كنت بصدد طلب نوعية الوثائق التي يتعين عليها تغيير بطاقة إقامتي من محلية إلى بطاقة إقامة أوروبية، بحيث يسمح لي العمل في أي بلد أوروبي". وقبل أن يسر للمجلة عن غايته بتفصيل، شرع في ترتيب بعض أوراقه واستجمع بعض أنفاسه ثم بادر في التحدث : "لقد وصلت إلى إسبانيا منذ العام 2000، بعد عام استطعت أن أحصل على وثائق الإقامة، وعلى عمل، بعد ثلاث سنوات استقدمت زوجتي واثنين من أبنائي، التحقا مباشرة بإحدى المدارس وظلا يدرسان فيها إلى اليوم، ومنذ العام 2009 بدأت تتراجع مع مرور الوقت إلى مدة أقصر، استنفذنا

كل المساعدات التي قدمتها لنا الحكومة الإسبانية، والوضع الاقتصادي لم يتغير، وأمام مطالب الحياة اليومية هنا ومستلزمات البيت والأسرة والأبناء، لم يبق لي إلا التفكير من جديد في الهجرة إلى أي بلد أوروبي آخر قد أحصل فيه على عمل".

يبدو هاجس جمال.ر هاجس العديد من المهاجرين المغاربة وغير المغاربة المقيمين في إسبانيا أو حتى في بلدان أخرى من جنوب أوروبا مثل إيطاليا الذين ضاقت بهم سبل العيش، هاجس استئناف رحلة الهجرة من جديد ونحو بلد بديل بحثا عن مخرج للضيق الاقتصادي المتربص بالبلاد والعباد.

توجهت المجلة إلى مقر مندوبية الحكومة بإشبيلية حيث هناك صفوف ممدودة لمهاجرين من شتى بقاع العالم منهم من يجدد إقامته ومنهم يطلبها لأول مرة ومنهم من يبحث عن التجمع العائلي وآخرون، وقد بدوا كثرا، يتطلعون إلى تحويل بطاقتهم إلى بطاقة أوروبية، حيث يضاف فقط حرفا (سي أ) إلى صفحة بطاقة الإقامة حتى يعود بإمكانه التنقل للعمل في كل بلدان الاتحاد الأوروبي. غير أن الإجراء ليس يسيرا إذ يتعين توفير عدد من الوثائق الأخرى للحصول على الإقامة بهذا الشرط.

بينما ينتظر مهاجر مغربي، يدعى فؤاد، ورفيق له في صف الانتظار من أوكرانيا يدعى إيفان لتقديم طلباتهم بمكتب الهجرة، شرعا معا في تبادل الحديث كما هي العادة في مثل هذه المناسبات، وكانت المصادفة كما شهدت على ذلك المجلة، أن غايتهما واحدة وهي طلب الإقامة الأوروبية من أجل التنقل إلى بلدان أوروبية أخرى للبحث عن عمل، حيث رشح فؤاد فرنسا كوجهة جديدة له بينما وجهة إيفان هي ألمانيا، ويمضي فؤاد متحدثا : "علينا البحث عن عمل في بلدان أوروبية أخرى، فرص العمل قليلة، وفي مركز التشغيل من النادر أن يتصلوا بك ليعرضوا عليك عملا"، ومن جهته يؤكد "البعض من الذين لا يملكون وثائق الإقامة الدائمة تبقى وضعيتهم القانونية مهددة لتعذر حصولهم على فرص العمل، وزوجتي واحدة من هؤلاء". صمت قليلا واستأنف : "يبدو أنه بعد 8 سنوات من غربتنا هنا يجب أن نبدأ رحلة هجرة جديدة".

اقتربت "نساء من المغرب" من ألبيرتو وهو موظف في مفوضية الأجانب، وطلبت منه معلومات تخص بطاقة الإقامة الدائمة الأوروبية، رد ألبيرتو موضحا : "للحصول على بطاقة من هذا النوع يتعين على المتقدم لذلك أن يكون حاصلا على بطاقة الإقامة الدائمة أو إقامة طويلة المدى التي يتم تجديدها فقط كل خمس سنوات، وأن يكون المعني بالأمر له دخل اقتصادي (عمل أو دخل مادي من مصدر آخر)، وله بطاقة الضمان الاجتماعي التي توفر له حق التطبيب. ثم يضيف "لقد بات لافتا أن ثمة ارتفاعا في عدد المتقدمين للحصول على بطاقة الإقامة الأوروبية في الآونة الأخيرة، ليس فقط بين المغاربة بل بين مهاجرين من جنسيات أخرى، يتطلعون للحصول على عمل في بلدان بديلة مثل فرنسا وبلجيكا وألمانيا وهولندا وغيرها حسب ما يفضي لنا بعض هؤلاء المهاجرين.

صفوف ممدودة لمهاجرين مغاربة من أجل تغيير بطاقة الإقامة

عائلات مغربية مهددة بالتخلي عن بيتها لأنها لم تستطع المضي في سداد القرض البنكي

أمينة .ت التقتها "نساء من المغرب" ساعة خروجها من جمعية "إشبيلية تستقبل" تستقصي معلومات بشأن فرصة عمل معلن عنها في لوحة للإعلان بمدخل الجمعية، بالإضافة إلى إيداعها طلبا تبدي فيه رغبتها في العمل "سواء في البيت" أو "راعية لمرضى أو أطفال". تعلم أن فرصا غير هذه للعمل غير موجودة، كل ما تبحث عنه هو عمل لكي لا تفقد بيتها الذي اقتنته مع زوجها بالتقسيط، وعليهما أن يدفعا شهريا 350 أورو للبنك. بيتهما بضواحي إشبيلية اقتنته وزوجها في العام 2004 ما زال أمامهما 8 سنوات من الأداء بالتقسيط وأسرت قائلة: "أريد أن أبحث عن عمل كيفما كان أجري في انتظار أن يجد زوجي العمل في بلد أوروبي آخر، لقد توجه حاليا إلى بلجيكا". تعود لتضيف أمينة وهي تسعى في تجاوز قليل من الارتباك بعض الأخبار التي تتناولها وسائل الإعلام تتحدث عن فرص جيدة للعمل هناك، آمل أن يجد زوجي الذي توجه إلى هناك منذ 10 أيام فرصة عمل"، ثم تمضي متحدثة وهي تضغط على أصابع يدها من بعض الترقب والتوتر الذي اعتلاها، قائلة : "سوف يبذل الجهد لضمان تقسيط البيت ومصاريف طفلينا الصغيرين 8 و6 سنوات اللذين يدرسان في مدرسة بالحي، وطبعا لن أتوقف أنا بدوري بالبحث عن عمل". أرسلت أمينة نفسا عميقا مملوءا بالأمل، واستعادت بعض هدوئها ثم انتقلت للتحدث عن الموضوع بعمومية قائلة : "اضطرنا قرارا يقضي بهجرة زوجي مرة أخرى إلى بلد أوروبي آخر كحل مؤقت" أنا وأولادي لا نريد أن نغادر لقد تعود الأطفال على الحي وعلى المدرسة وعلى اللغة لا أريد أن أبدأ رحلة أخرى وهجرة جديدة، يكفينا الأولى، فقد كانت صعبة

ولم تكن سهلة : ثم تردف مستطردة وكأنها تقر بالواقع وبقوته "صحيح هناك عائلات اضطرت إلى الرحيل من جديد، وأن تبدأ مشوار هجرة جديد، سلمت مفاتيح بيتها للبنك، بعد عجزها عن تأدية مستحقات القرض". تتوقف أمينة قليلا ثم تعود وتسأل "هل اطلعتم على خبر نشرته صحيفة إلموند في هذا الاتجاه" (تقرير خبري لصحيفة إلموند تحدث عن مجموعة من عائلات المهاجرين بينهم مغاربة وحتى عائلات محلية إسبانية اضطروا للتخلي عن منازلهم للبنوك بعد عجزهم عن أداء مستحقات القرض).

منتديات خاصة بالظاهرة

ظاهرة "الهجرة الثانية" كما تتبلور في الواقع، تتبلور بتواز مع ذلك على المستوى الرقمي. عائلات مهاجرة استقرت منذ أكثر من عقد بإسبانيا، تضطر للرحيل والهجرة من جديد نحو فضاءات أوروبية بديلة في معارج العالم الرقمي تطلع المبحر منتديات رقمية تتردد فيها أفكار وخواطر وهواجس المهاجرين من أصول مختلفة تتبادل المعلومات والأخبار بخصوص سبل الهجرة ووجهاتها. والمنتدى لا يشمل المهاجرين المغاربة بل مهاجرين من أمريكا اللاتينية وحتى مواطنين إسبان وأوروبيين. يجري في المنتدى تبادل المعلومات والنصائح للعمل في بلدان عدة ومن بينها بلجيكا.

دلت أمينة ،ت "نساء من المغرب" على الموقع، وأكدت أنها تتردد عليه كثيرا لأن به معلومات قيمة ونصائح من مهاجرين سابقين للعمل في بلجيكا.

وتعكس مقاطع من حوارات دائرة بين زوار المنتدى مظاهر تسمى "بالهجرة الثانية إلى بلدان بديلة بحثا عن العمل وهذا بعض منها:

يقول فرناندو وهو مهاجر من الأوروغواي وتجنس بالجنسية الإيطالية : "مساء الخير اسمي

وسائل الإعلام تخلق انطباعا بضرورة الهجرة كحل بديل للأزمة

فرناندو حاليا أقيم في ماريوركا، وكما تعلمون الوضعية الاقتصادية هنا ليست جيدة، وتراودني فكرة الهجرة لأجرب حظي من جديد. عمري 46 سنة لدي عائلة يجب أن تأكل وتشرب وليس لي من سبيل سوى البحث عن عمل" ثم يضيف "لقد سجلت نفسي بالمنتدى كما تعلمون لأعرف كيف هي وضعية العمل في بلجيكا أرجو أن تمودوني بمعلومات وأشكركم كثيرا مسبقا.

يرد مهاجر من أمريكا اللاتينية يدعى مانو راميريز على طلب فرناندو ويقول : "إذا كنت تتحدث الفرنسية والهولندية فذاك هو الشرط الأول للحصول على عمل في بلجيكا. وضعية العمل جيدة في بلجيكا، ولكن اعلم أنهم يشترطون المعرفة باللغات". ثم يعود فرناندو ليعلق على ما قاله مانو، قائلا : "أشكرك كثيرا على المعلومات القيمة مانو، أود أن أخبرك أني أقيم في إسبانيا أزيد من عشر سنوات وأنا إيطالي ومن الأورغواي كذلك والعمل هنا سيء بخصوص الفرنسية لا أخفيك فلا أعرف شيئا أكثر من كلمة "مرسي بوكو". هل في كل شيء يطلبون الفرنسية؟ هل حتى في البناء وفي النجارة وفي غسل الأطباق كذلك؟.

يلتحق مهاجر مغربي لا يذكر اسمه لكنه يشير إلى أنه مغربي، ليعرض بدوره رغبته في الهجرة إلى بلجيكا نفسها، يقول : "أهلا بك مانو، اتصل بك أنا مهاجر مغربي أقيم في أليكانتي، يبدو لي من خلال تعاليقك أنك تعرف الكثير عن ظروف العمل في بلجيكا، ولا أخفيك أني لدي رغبة في الهجرة من جديد إلى بلجيكا، ولدي سؤال : لدي أحد أقاربي في بلجيكا أخبرني أنه حينما تصل للبحث عن عمل هناك يسألونك عن عنوان وإذا لم يكن لديك عنوان فلن تشتغل، وأنا لا أريد أن أضع عنوان أقاربي، هل هناك إمكانية لكراء بيت فقط لشهر أو شهرين لأني أريد أن أتوجه للعمل هناك ويكون بين يدي عنوان حتى لا أضيع فرصة العمل..."؟.

الإعلام وموسطة / ميدياسيون الأزمة، وصناعة قرار "الهجرة من جديد"

تشكل وسائل الإعلام المصدر الأكثر لتلقي المعلومات لدى الأفراد والمجتمع، وعادة ما يحتفظ هؤلاء الأفراد والمجتمع بالأفكار والصور عن الأشياء والوقائع كما صنعتها في ذهنهم وسائل الإعلام. على هذا النحو تقريبا أكد الدكتور رفائيل غونزالث غالبانا، أستاذ بكلية الإعلام الاتصال بجامعة إشبيلية ورئيس مجموعة البحث في الاتصال ونقد الثقافة، في حديث له إلى "نساء من المغرب" بمكتبه، "دور وسائل الإعلام في صناعة المواقف لدى الأفراد واتخاذهم القرارات". كان ذلك في معرض جوابه عن سؤال دور وسائل الإعلام، في الحسم في قرار الهجرة والتفكير في الهجرة إلى فضاءات بديلة؟ ومضى رفائيل غالبانا موضحا للمجلة قائلا : "لقد أفضت المعالجة الإعلامية للأزمة وللهجرة إلى تقديم تصور "مموسط" لهما فقد ربطت بينهما ربطا آليا في بحث جلي عن ضحية يدفع ثمن تلك الأزمة، وهو في هذه الحالة هو المهاجر"، "إن الموسطة الإعلامية تقود أحيانا إلى خلق واقع أقوى من الواقع الحقيقي، وبالتالي يكون له تأثير أكبر على الإدراك الاجتماعي". ويستطرد الباحث الذي يهتم في أبحاثه بعلاقة الإعلام بالهجرة كذلك مجليا : "إنه انطلاقا من هذه المعطيات استطاعت وسائل الإعلام أن تهيىء من ناحية أخرى هذا الانطباع بضرورة الهجرة لدى كثير من الرأي العام ليس المهاجر فحسب بل حتى من المواطنين المحليين ثم يؤكد قائلا : "ومع ذلك، كانت وسائل الإعلام تلك تشكل ملجأ لهؤلاء المهاجرين لمعرفة البدائل، وتأمل الحلول لأزمتهم ومعضلاتهم عبر المعالجات الإعلامية التي تقدمها تلك الوسائل.

الهجرة الثانية قد تقود إلى اختلال وعدم توازن على مستوى القيم لدى القاصرين وفقد مرجعياتهم الأصلية لمعناها

الأثار الأخرى لظاهرة الهجرة الثانية لا تنحصر

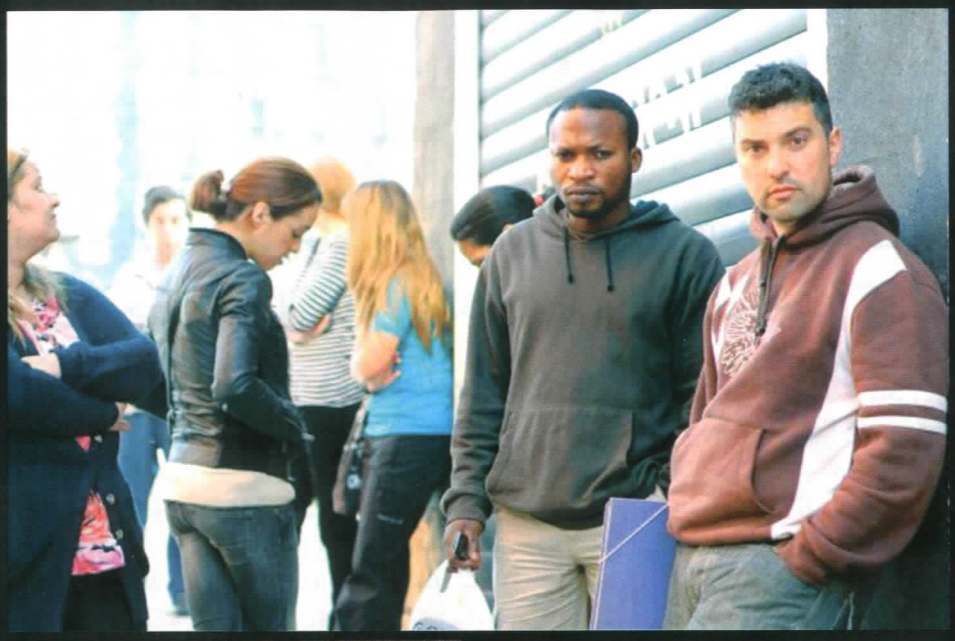

آثارها في الجوانب الاقتصادية أو القانونية، بل تشتد وتصبح أكثر شراسة حينما يتم رصدها انطلاقا من التجليات النفسية والاجتماعية للظاهرة على أفراد الأسرة المهاجرة وخصوصا أبناءها القاصرين، وفي هذا الصدد التقت "نساء من المغرب" بالباحثة في علم النفس الاجتماعي بإشبيلية بيلين، لتسمع إلى تشخيصها للظاهرة ولأبعادها من منظور علم النفس الاجتماعي، فقالت للمجلة في هذا الصدد : "إن أكبر أثر لظاهرة "الهجرة الثانية" على العائلة وأفرادها يبقى هو الإحساس الكبير بعدم الاستقرار لدى أفرادها وتضيف قائلة : "إن هذا الإحساس ينتقل من الآباء إلى الأبناء ويولد لديهم شعورا بالاحباط على الرغم من أن هؤلاء القاصرين لديهم قدرة أكبر على التكيف مع محطات جديدة ومع ذلك التداعيات تبقى قائمة على مستوى الاستقرار الاجتماعي والعاطفي والثقافي وتشدد بيلين في حديثها على مستوي القيم، وقد تفقد خلالها المرجعيات الأصلية معناها.

وأحصت بيلين ل"نساء من المغرب" الآثار الاجتماعية والنفسية التي تمس الأفراد القاصرين في هذه الأسر التي شبهتها "بالرحل"، والتي تتنقل في مسارها المهجري بين واحات ثقافية واجتماعية وبيئية متباينة وأحيانا متناقضة وقالت في هذا الصدد : "بالتأكيد سوف يؤثر هذا الأمر على أدائهم الدراسي وقد ينتهي إلى الفشل وقد يدخل هؤلاء الأطفال في علاقة عدم ثقة مع المحيط ومع المجتمع وتضيف بيلين مستنتجة أن الهجرة بعد مرحلة استقرار قليلة ثم استئنافها من جديد سوف يخلف لدى هؤلاء الأطفال شعورا بعدم الانتماء إلى مكان

الهجرة الثانية تخلف لدى الأطفال شعورا بعدم الانتماء

بعينه وستؤثر على طبيعة شخصيتهم وخاصة إذا كانت هذه الهجرة اضطرارية ويعلم بأسبابها وداوعيها هؤولاء الأطفال".

وتكاد تتطابق هذه الخلاصات التي كشفت عنها الباحثة الإسبانية في علم النفس الاجتماعي ل "نساء من المغرب" مع ما كانت قد أعربت عنه المهاجرة المغربية أمينة المقيمة بإشبيلية أثناء حديثها للمجلة حيث أشارت فيها إلى أن زوجها وحده توجه لبلجيكا بحثا عن العمل في حين بقيت هي والأبناء في المدينة الإسبانية دفعا من جهتها ومن جهة زوجها للتداعيات السلبية "للهجرة الثانية" على أبنائهما.

ماري لوس مورينو : يتبين أنه مع كل أزمة كانت الحكومات الأوروبية تتخذ إجراءات متشددة عملا بنظرية الصدمة

الضيق الذي يتربص بالمهاجرين في هذه المرحلة ليس مصدره الأزمة فحسب بل تواطأت عليه، إضافة إلى ذلك، القوانين المجحفة والسياسات المتشددة التي تتبناها الحكومات الأوروبية، فقد سعت منذ البدء في البحث عن كبش فداء حينما ربطت بين الأزمة الاقتصادية والهجرة ولمحت إلى أن المهاجر أحد مشاكلها.

وقد أكدت المحامية الإسبانية ماري لوس المختصة في شؤون الهجرة وتنشط في مجال حقوق الأقليات، ل "نساء من المغرب" أن قانون الهجرة في أوروبا لم يراع في مضمونه، الوضع الحالي للمهاجرين بل أمعنت في ابتكار القوانين الأكثر تشددا وتضيف موضحة في إسبانيا الحكومة الجديدة أعلنت في خطاباتها بل وحتى في برنامجها الانتخابي عن نيتها اتخاذ إجراءات جديدة في مجال الهجرة وسوف تسن قوانين جديدة ويفترض أن تكون متشددة وتشير ماري لوس إلى أنه قد تبين أنه مع كل أزمة تلجأ الحكومات في أوروبا إلى التشدد في القوانين عملا بنظرية الصدمة وهي نظرية تضيف المحامية الإسبانية تجعل الرأي العام يعتقد في أن التشدد في القوانين هو المخرج الأنسب لحل المشاكل والأزمة وتوحي بأنها قادرة على ضمان أمن ما مفترض. وتستطرد ماري لوس قائلة : "إن هذه القوانين سوف توسع بورصة العاطلين وتهدد الوضع القانوني للمهاجرين حيث ترتبط الإقامة بالعمل وتضيف لن يكون أمر مفاجئا أن ترى ظاهرة "الهجرة الثانية" تنشط من جديد بحثا عن عمل لضمان استمرار إقامتهم.

غير أن الأسوأ في نظر الناشطة في حقوق الأليات والهجرة، هو أن أوروبا عموما تقيم يوما بعد يوم حدودا أخرى تعيق التحرك العادي للمهاجرين وحتى المهاجرين المغاربة مثلا تضيف قائلة : "من الذين يملكون وثائق إقامة دائمة إذا أرادوا أن يتوهجوا للعمل في بلدان أخرى يجب أن تكون لديهم إقامة أوروبية وهذا يعني إجراءات ووثائق وشروط أخرى".■